Siyasal Bilgiler Fakültesi Dergisi (İSMUS), I/2 (2016), s. 1-12

مقاومة الطوارق للتوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية (١٨٨١-١٩٢٨)

الغالي غربي*

الملخصة

من جملة الأحداث الهامة التي شهدتها الجزائر أواخر القرن التاسع عشر؛ تلك المقاومة الباسلة والمشرفة التي خاضها سكان الجنوب الشرقي للصحراء الجزائرية في مواجهة الغزو الاستعماري لهذه المنطقة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. والتي شاركت فيها معظم قبائل وعشائر الطوارق تحت قيادة زعمائها وأمناء عقالها. وهي المقاومة التي كلفت فرنسا تجنيد كامل قواتها المادية والبشرية المرابطة في الشمال الصحراوي للقضاء عليها لتأمين سيطرتها على الصحراء الجزائرية، التي بدأت تتطلع إليها عدة قوى أوربية منافسة لفرنسا. خاصة وأن هذه المقاومة قد كبدت الطرف الفرنسي خسائرا مادية وبشرية كبيرة وسقوط ضباطا وقادة وعسكريين. زيادة على أن هذه المقاومة أظهرت التحالف العثماني الجزائري الليبي في مواجهة المشروع الفرنسي الرامي لتنصير الطوارق.

وسوف نستعرض في ورقتنا البحثية هذه المقاومة، ولكن ليس بالاستفاضة والتوسع الذي يمكننا من توضيح كل خفايا هذا الموضوع بجزئياته وكلياته. إذ نركز فقط على شخصية نضالية كان لها الدور الريادي في تطور المسار التاريخي لهذه المقاومة، وهو السلطان آمود le Sultan Amoud وحجتنا في ذلك أن المادة التاريخية التي هي بين أيدينا شحيحة ولا تفي بالحاجة. ورغم أن المدرسة الفرنسية أولت اهتماما كبيرا بموضوع الصحراء الجزائرية بهدف معرفة إمكانياتها الاقتصادية والبشرية وتضاريسها الجغرافية والطبيعية ودراسة المجتمع الطرقي بعاداته وتقاليده وثقافته إلا أن هذه المدرسة أهملت عن قصد كل ما يتعلق بمواقف هذا الأخير من الوجود الفرنسي ، اللهم إلا بعض الإشارات الواردة في تقارير ومذكرات وبرقيات بعض القادة الفرنسيين العسكريين الذين تولوا مهمات عسكرية وقيادية في الصحراء لهذا فإن أغلب المعلومات التاريخية الواردة في هذه الدراسة ، استقيناها اعتمادا على الرواية الشفوية المحلية من خلال شهادات أشخاص عايشوا الأحداث الأخيرة من هذه المقاومة.

الكلمات المفتاحية: الطوارق، الجزائر، أفريقيا، الصحراء، الإمبراطورية العثمانية، ليبيا، الغاط، جانت، فرنسا الاستعمارية، المقاومة الجزائرية، الإسلام، الأزغار، الهقار، الفرنسية الاختراق، الأمانوقال.

*أ.د.، مدير مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية، جامعة الدكتور يحي فارس المدية.

LA RÉSISTANCE DES TOUAREGS FACE A LA PÉNÉTRATION FRANÇAISE DANS LE SAHARA ALGERIEN (1881-1928)

Elkali GHERBI**

Le Résumé

Parmi les évènements les plus marquants de l'Algérie l'on cite l'honorable brave résistance des habitants du sud-est de Sahara algérien. Elle fut menée avec ardeur contre l'envahisseur colonisateur de cette région vers entre le 19ème et le 20ème siècles. Plusieurs tribus et clans Touaregs y participèrent sous la direction de leurs chefs (Amenokals). Ce fut la résistance qui poussa la France à déployer toutes ses ressources physiques, matérielles et humaines postées au nord du Sahara dans le but de l'anéantir et d'assurer sa dominance et son contrôle sur le Sahara algérien convoité par plusieurs puissances européennes concurrentes de la France. Une résistance qui infligea à la partie française des pertes colossales d'ordres humain et matériel, perdant plusieurs officiers et chefs militaires. La résistance mit en relief l'alliance ottomane algéro-libyenne luttant contre le projet français œuvrant christianiser le peuple algérien.

Les mots clés: Touaregs, Algérie, Afrique, Sahara, Empire Ottoman, Lybie, Ghât, Djanet, La France colonial, La Résistance Algérienne, L'islam, Ajjer, Hoggar, Pénétration Française, Amenokal.

CEZAYİR SAHRASI'NDAKİ FRANSIZ NÜFUZUNA KARŞI TEVÂRIK MUKÂVEMETİ (1881-1928)

Özet

Cezayir'de yaşanan en önemli olaylar arasında Cezayir Sahrası'nın güneydoğusundaki halkın onurlu ve cesur direnişi yer almaktadır. 19. ve 20. yüzyıllar arasında bölgeyi işgal eden sömürgecilere karşı hararetle sergilenen bu direnişe, birçok Tevârık (Tuareg) kabilesi reisi (amenukali) öncülük etmiştir. Bu direniş, Fransa'nın Avrupalı rakiplerinin göz diktiği Cezayir Sahrası'nda hâkimiyetini güçlendirmek ve bu direnişi yok etmek amacıyla Sahra'nın kuzeyine konuşlandırdığı fiziksel, maddi ve insani kaynaklarının tümünü harekete geçirmesine sebep olmuştur. Birçok subay ve ordu komutanını kaybeden Fransızların büyük oranda insani ve maddi zarar görmesine neden olan bu direniş, Fransa'nın Cezayir halkını Hristiyanlaştırma projesi karşısındaki Osmanlı-Cezayir-Libya ittifakını gözler önüne sermektedir.

Anahtar Kelimeler: Tevârıklar (Tuaregler), Cezayir, Afrika, Büyük Sahra, Osmanlı İmparatorluğu, Libya, Gât, Cânet, Fransız Sömürgeciliği, Cezayir Direnişi, İslam, Ezgar, Hoggar, Fransız İşgali, Amenukal.

** Prof. Dr., Université Yahia Farès de Médéa, Directeur de laboratoire des etudes historiques méditteranéens, Algerie, kaligherbi@yahoo.fr

مقدمــة

شهدت الصحراء الجزائرية أحداثا وملاحما بطولية مازالت شواهدها ومعالمها بارزة للعيان تذكر الأجيال بعظمة الشعب الجزائري وتضحياته. إلا أن الكثير من هذه الأحداث والملاحم التاريخية لا تزال يلفها النسيان ويكتنفها الغموض وربما حتى الإهمال. ولعل مرد ذلك اهتمام مؤرخينا بتاريخ مناطق دون أخرى، لقلة المصادر التاريخية التي تساعد الباحثين في هذا المجال، أو لبعد هذه المناطق عن مراكز البحث وضعف الوسائل المادية المسخرة لذلك. ومن جملة هذه الأحداث تلك المقاومة الباسلة والمشرفة التي خاضها سكان الجنوب الشرقي للصحراء الجزائرية في مواجهة الغزو الاستعماري لهذه المنطقة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. والتي شاركت فيها معظم قبائل وعشائر الطوارق تحت قيادة زعمائها وأمناء عقالها[1]. وهي المقاومة التي كلفت فرنسا تجنيد كامل قواتها المادية والبشرية المرابطة في الشمال الصحراوي للقضاء عليها لتأمين سيطرتها على الصحراء الجزائرية، التي بدأت تتطلع إليها عدة قوى أوربية منافسة لفرنسا.

وسوف نستعرض في دراستنا هذه المقاومة، ولكن ليس بالاستفاضة والتوسع الذي يمكننا من توضيح كل خفايا هذا الموضوع بجزئياته وكلياته. إذ نركز فقط على شخصية نضالية كان لها الدور الريادي في تطور المسار التاريخي لهذه المقاومة، وهو « الشيخ آمود » وحجتنا في ذلك أن المادة التاريخية التي هي بين أيدينا شحيحة ولا تفي بالحاجة. ورغم أن المدرسة الفرنسية أولت اهتماما كبيرا بموضوع الصحراء الجزائرية بهدف معرفة إمكانياتها الاقتصادية والبشرية وتضاريسها الجغرافية والطبيعية ودراسة المجتمع الطرقي بعاداته وتقاليده وثقافته إلا أن هذه المدرسة أهملت عن قصد كل ما يتعلق بمواقف هذا الأخير من الوجود الفرنسي ، اللهم إلا بعض الإشارات الواردة في تقارير ومذكرات وبرقيات بعض القادة الفرنسيين العسكريين الذين تولوا مهمات عسكرية وقيادية في الصحراء لهذا فإن أغلب المعلومات التاريخية الواردة في هذه الدراسة ، استقيناها اعتمادا على الرواية الشفوية المحلية من خلال شهادات أشخاص عايشوا الأحداث الأخيرة من هذه المقاومة (*).

خصائص المقاومة الطوارقية

تميزت المقاومة الشعبية للطوارق بعدة خصائص ميزتها عن مثيلاتها التي شهدتها الجزائر في الحقبة الاستعمارية، ويمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ كبر المساحة الجغرافية التي غطتها المقاومة؛ إذ امتدت من مدينة « غات» على الحدود الليبية الجزائرية شرقا، إلى مدينة « تمنراست» غربا بما فيها منطقتي طاسيلي أزجر والهقار ومن مدينة «ورقلة» شمالا إلى حدود النيجر جنوبا.

2 ـ المساهمة الواسعة والتأييد الشعبي الذي وجدته المقاومة من كل قبائل وفصائل الطوارق القاطنين ضمن هذه الرقعة الجغرافية. فقد شاركت فيها قبيلة « كلا غلا» التي ينتمي إليها الثائر « أهتيغال» وقبيلة « إيمانان» التي ينتمي إليها الثائر « الشيخ آمود» وهو موضوع دراستنا. بالإضافة إلى قبائل « كلا طايتوك »، «إيفوغاس نهقار»، « تدجاح ملات»، « إرقاناتن»، «إيهضانارن». ولا يخفى على أحد مدى قوة شكيمة هذه القبائل وسرعة تكيفيها مع الظروف

والمناخية والطبيعية، لهذا استحال على القوات الفرنسية الغازية الغريبة عن ظروف الصحراء من إخمادها أو القضاء عليها بسهولة.

3 ـ البعد الدولي الذي كسبته المقاومة ، باعتبار أن المنطقة التي اجتاحها كانت مطمع عدة قوى دولية آنذاك مثل بريطانيا ، فرنسا ، إيطاليا، ألمانيا والدولة العثمانية ؛ التي كانت تتحكم في إقليم طرابلس وبرقة الليبيتين ،وتعتبر الجزء الشرقي من الصحراء الجزائرية مازال تحت سيادتها ، وفي هذا الإطار برزت مشكلة مدينة جانت للوجود ، وأصبحت من أشهر المصطلحات السياسية المتداولة في ميدان العلاقات الدبلوماسية وبالخصوص بين الأتراك والفرنسيين ، إذ راح كل طرف يطالب بأحقيته في السيطرة على المنطقة وكان كل من القائدين « أهتيغال» و«الشيخ آمود» من المؤيدين للمطالب العثمانية [2]

4 ـ الدور الإيجابي الذي لعبته الطريقة السنوسية في دعم ومساندة المقاومة الشعبية ورموزها بمدهم بالمؤن والعتاد. وقد تضمنت التقارير الفرنسية وبعض كتب الرحالة الفرنسيين والأوربيين عامة الكثير من المعلومات التي توضح هذا التحالف والتعاون والتضامن، وتذكر طبيعة العلاقة بين الطوارق وزعماء الطريقة السنوسية. ونستشف من قراءة هذه التقارير والمذكرات أن الطريقة السنوسية لعبت دورا أساسيا في استنهاض الهمم في المنطقة والدعوة إلى رفض كل وجود أجنبي وذلك بواسطة زاويتها في مدينة جانت ومبعوثيها إلى مختلف المناطق. ويمكن تفسير طبيعة العلاقة بين الطرفين؛ بقرب منطقة المقاومة من الحدود الليبية وتأثر زعماء المقامة من الجزائريين بصدى الحرب الإيطالية ـ الليبية منذ سنة 1911 ومساهمتهم فيها [3]. زيادة على انتشار أفكار الجامعة الإسلامية التي تسربت إلى المنطقة عن طريق القوافل التجارية وبواسطة الحجاج [4].

بدايات المقاومة الشعبية

انطلقت المقاومة الشعبية في ظروف دولية تميزت بشدة التطاحن والتنافس الدوليين لاقتسام القارة الإفريقية بين القوى الاستعمارية الأوربية خاصة بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا التي دخلت حلبة الصراع متأخرة نوعا ما. ويمكن أن نذهب في القول أن هذه المقاومة تجسدت في ثورة شعبية عارمة ضد هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة التي عرفها العالم العربي والإسلامي عامة والصحراء الإفريقية خصوصا مع مطلع الخمسينات من القرن التاسع عشر كثفت فرنسا من إرسال البعثات الاستكشافية إلى الصحراء، وبذلت مجهودات لإبعاد أطماع بقية الدول الأوربية وخصوصا بريطانيا هذه الأخيرة التي أبرمت معها سلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات لتحديد نصيب وحصة كل طرف من الغنيمة. وهذا السياق نذكر اتفاق 1890 الذي نتج عنه تقسيم القارة الإفريقية [5]. واتفاق 21 مارس 1899 والذي حددت فيه المناطق التي ترغب بها كل من الدولتين خاصة تلك التي تتعلق بالصحراء الكبرى والتي كانت من نصيب فرنسا وهكذا تحقق لفرنسا ما كانت تحلم به، وهو ربط مستعمراتها في وسط إفريقيا وغربها بمستعمراتها في الشمال الإفريقي.

هكذا بدأت أولى الاتصالات بين فرنسا والطوارق من خلال البعثات الاستكشافية التي كان ظاهرها خدمة المعرفة العلمية وباطنها التجسس على مقدرات المنطقة البشرية والعسكرية. ولتحقيق مطامحها انتهجت في هذا الميدان الطرق السلمية لكسب ود التوارق باستخدام شتى المغريات مثل منح المناصب والهدايا. وقد توجت هذه الاتصالات بإبرام «معاهدة غدامس »

بين فرنسا وزعيم التوارق «الشيخ إيخنوخن» في 26 نوفمبر 1862 والتي يلتزم فيها الطرفان بفتح طرق التجارة للفرنسيين إلى السودان وإصلاحها وتحديدها وتوفير الحماية والأمن للتجار الفرنسيين [6]. ومنذ هذا التاريخ بدأت الدوائر الحكومية الفرنسية في التفكير في وضع ملامح جديدة لسياسة تقارب بين فرنسا والطوارق دون إظهار النوايا الخفية لفرنسا الاستعمارية [7].

ثورة الطوارق

إن مرامي السياسة الاستعمارية الفرنسية ما فتئت أن اكتشفها السكان المحليون مع مجيء أول الفرق العسكرية بقيادة المقدم فلاترس «Flatters» سنة 1880 إلى منطقة الهقار. تذكر المصادر التاريخية أن طوارق أزقار و الهقار وكال قرس وكال اوات وطوارق تمبوكتو اجتمعوا في مدينة « غات » وقرروا بالإجماع على مقاومة أية محاولة أوربية للتغلغل في الصحراء [8].

وهنا تظهر شخصية أهتيغال محمد بسيكا بن الحاج البكري 1877-1900 أمينكال طوارق الهقار الذي تفطن لنوايا الفرنسيين وراح يوحد قبائل الهوقار ويقضي على الصراعات والمشاحنات القبلية لمواجهة المستجدات الجديدة [9]. شعر الفرنسيون بمدى المعنوي والسياسي الذي يتمتع به أهتيغال على قبائل الهقار، لذا حاولوا بطرق مباشرة وغير مباشرة من التقرب إليه لاستمالته والتفاوض معه، وخاصة وأن كل المعطيات التي يملكونها عنه تؤكد أنه لا يحبب التقارب مع الفرنسيين. لهذا استخدمت السلطات الفرنسية أصدقاءه للتأثير عليه لتغيير موقفه من الفرنسيين. وفي إحدى رسائله إلى أحد أصدقائه الذي أوصاه خيرا بحملة المقدم فلاترس Flatter يتضح لنا الموقف الوطني المبدئي الرافض لأي وجود أجنبي فوق الأرض الجزائرية، ويختم هذه الرسالة بقوله: «لقد جاءوا ولقد ماتوا » [10].

كان هدف حملة فلاترس القيام بعملية استكشاف لمد طريق من الجزائر إلى النيجر ثم إلى التشاد. إلا أن إصرار المقدم فلاترس على اصطحاب فرقة عسكرية ترافق أعضاء البعثة، أثار شكوك وريبة قبائل الهقار، ولما تأكدوا من أهدافها الحقيقية تقرر الهجوم عليها. وبالفعل كانت نهاية الحملة في « بئر الغرامة»، إذ تعرضت لكمين نصبه فرسان الهوقار. وفي الجولة الأولى من الاصطدام قتل ستة وثلاثون من بينهم فلاترس، وراح الثوار يتتبعون الفلول الفارة من ساحة المعركة. وفي الجولة الثانية سقط الملازم الأول « ديانوس » قائد القوة العسكرية، ولم ينج من هذا المصير إلا عدد يسير من الذين كتبت لهم النجاة. وفي 28 مارس1882 وصلت أنباء الكارثة إلى مدينة ورقلة مركز قيادة الجيش الصحراوي الفرنسي، ونزلت نتائج هذه المعركة كالصاعقة. وراحت الأقلام الفرنسية تفسر أسباب الهزيمة ومجرياتها مع إبراز شجاعة أعضاء الحملة وعلى رأسهم فلاترس فاستحوذت أخبار الهزيمة على اهتمامات الرأي العام الفرنسي. وتبادلت الجهات الرسمية التهم بتحميل بعضها المسئولية، فصدرت مجموعة كبيرة من الكتب والتقارير والتحاليل حولها. المهم في هذا كله؛ أن كامل أعضاء الفرقة كانت نهايتهم مأساوية، أما القوة العسكرية المرافقة لها والبالغ تعدادها 78 عسكري، فقد قتل منهم واحد وخمسون عسكري، دون ذكر عدد من الأسرى الذين وقعوا في أسر الثوار [11]. كانت هذه الواقعة بداية استفحال ظاهرة السخط والعداء لكل ما هو أوربي عامة والفرنسي بخاصة، إذ شهدت منطقة الطوارق سلسلة من الاغتيالات للأوربيين في الصحراء [12]. وتضاعفت كمائن الطوارق لكل المحاولات الفرنسية لاختراق الصحراء ومسالكها، وضلت فرنسا تخشى المرور عبر أراضي الطوارق

ولم يحالفها الحظ إلا عندما حل الراهب « ميشال دو فوكو» Michel De Foucauld بمنطقة الهقار، والذي مهد من خلال الدور التجسسي الذي لعبه في إرسال معلومات جد هامة عن أوضاع المنطقة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، كانت عونا للمصالح العسكرية الفرنسية في وضع مشاريعها التوسعية [13]. إن المتتبع لتطور السياسة التوسعية الفرنسية في الصحراء الشرقية يلاحظ؛ أن هذه الأخيرة، وبعد التجربة الميدانية المريرة في التعامل مع قبائل الطوارق، راحت تبحث عن بدائل وصيغ جديدة. ومن بين هذه الصيغ تكثيف العمليات العسكريـة وتقسيم الجيش إلى وحدات أو فرق قليلة العدد مهمتها مراقبة النقاط الإستراتيجية وتأمين الاتصالات . إلا أن الطوارق واجهوا هذه الأساليب بتصميم أكبر على المقاومـة والاستماتة في الدفاع عن هذا الجزء من الصحراء. وفي هذا السياق كبدوا الفرنسيين خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد في عدة معارك، أشهرها معركة « تيت » سنة 1902 التي انتهت بقتل الضابط الفرنسي كوتنيس ، أما خسائر الجانب الجزائري ؛ فكان استشهاد حوالي سبعون شهيدا. وبعد هذه المعركة أبرمت السلطات الفرنسية معاهدة هدنة مع قبائل الطوارق [14].

ثورة الشيخ آمود

عاصرت ثورة الشيخ آمود إضافة إلى ما ذكرنا، أحداثا سياسية أخرى أثرت في مجريات أحداثها، وكان على رأسها الحرب الإيطالية ـ الليبية. فقد انتقلت تطورات هذه الحرب إلى منطقة الصحراء الجزائرية، وبالضبط إلى منطقة « جانت » والطاسيلي آزجر، وذلك لقرب حدود ليبيا لهذه المنطقة، زيادة على النفوذ الروحي الذي كانت تتمتع به الطريقة السنوسية في منطقة «جانت» وضواحيها. وهذين العاملين كانا وراء تلبية الطوارق الجزائرية لنداء الجهاد الذي أعلنته الطريقة السنوسية على الجيش الإيطالي. وحسب الروايات المحلية التي استقيناها من المنطقة، فإن الطوارق بقيادة الشيخ آمود انتقلوا إلى الأراضي الليبية، وشاركوا المجاهدين الليبيين في غدة معارك كان أشهرها معركة « فزان» و « أولاد محمود » و « وادي ثلت » ، وقد مكثت القوات الجزائرية على الأراضي الليبية حوالي ثلاث سنوات من 1911-1914.

شخصية الشيخ آمود 1859 - 1928

بعد هذا التمهيد التاريخي عن الخلفيات السياسية والاقتصادية للثورة يجدر بنا أن نتتبع مراحل الثورة [15]. لكن قبل هذا من يكون « الشيخ آمود » بن المختار فاعتمادا على الرواية المحلية؛ فإن الشيخ آمود ينتسب إلى قبيلة « إ يمانان » التي استوطنت منطقة فاس المغربية، بعد أن هاجرت إليها من منطقة الساقية الحمراء. لكن لا ندري شيئا عن الأسباب التي دفعت أفراد هذه القبيلة إلى الانتقال إلى مدينة جانت لكن هذا الأصل أكسبها مكانة مرموقة ونفوذا واسعا حتى أصبحت من أشهر قبائل الطوارق ذات التأثير المادي والمعنوي وازدادت أهمية هذه الأسرة لما دخل زعيمها « الشيخ آمود » في علاقات مع الأتراك ثم مع زعماء الطريقة السنوسية. ولتوضيح هذه الفكرة تشير بعض المصادر الفرنسية المعاصرة لأحداث الثورة، إلى اعتراف السلطات العثمانية بنفوذ الشيخ آمود على مدينة جانت وضواحيها، والتقرب إليه خاصة بعد أن ازدادت الأطماع الفرنسية في المنطقة. فقد كان بمثابة الحليف، ولإغراء الشيخ آمود أكثر، منحوه طابعا خاتما يحمل لقب «الشيخ» زيادة على علاوة سنوية تقدر ب 250 ف. ف و40 مكيالا من الشعير، مقابل التزام الشيخ آمود، بتوفير المئونة اليومية لجنود الحامية التركية في مدينة جانت وتنازل لهم من جانبه

عن حقه في جباية المكوس التي كان «الشيخ آمود » يفرضها على القوافل التجارية العابرة عبر منطقة نفوذه، وأوكل لهم أيضا استخلاص الضرائب التي كان يجبيها من بعض الأملاك في مدينة « غات ». بالإضافة على هذا كان الأتراك يرسلون له خلعة التولية في بداية كل سنة متمثلة في برنوس أحمر ومسدس. وقد كان لهذا التحالف السياسي، الذي ربط الشيخ آمود بالدولة العثمانية، أن زادت هيبة القبيلة لدى بقية القبائل الطوارقية التي أعلنت في الأخير خضوعها لإرادة قبيلة «يمانان» ومما يلاحظ أن « الشيخ آمود » لم يكن رجلا عسكريا فحسب بل كان رجل علم ومعرفة إذ تلقى تعليمه الأول في مدينة «جانت » حيث حفظ القرآن الكريم وأستوعب مبادئ اللغة العربية. ونشير هنا أن الحياة الثقافية والعلمية في مدينة جانت، كانت مزدهرة بفضل الموقع الجغرافي الممتاز الذي أهلها لأن تكون محطة توقف القوافل التجارية التي تمر عبر المنطقة، ووفد إليها علماء كثيرون كانوا وراء تنشيط وازدهار هذه الحياة الثقافية من أمثال «محمد حنش محمد عالي» الذي أسس فيها مدرسة لتدريس علوم الفقه، زيادة على الدور التعليمي والتثقيفي الذي لعبته الطرق الصوفية مثل القادرية، ازدادت المكانة العلمية للمدينة بتأسيس الطريقة السنوسية زاويتها سنة 1901. لم يكتف « الشيخ آمود » بما أخذه على أيدي علماء مدينة « جانت » بل انتقل إلى مدينة « تامنغست » و « عين صالح » لاستزادة من مختلف علوم عصره، وكان لهذه الثقافة الدينية تأثير بالغ الأثر على أتباعه ومناصريه من بقية القبائل الطوارقية، الذين لبوا نداء الجهاد الذي أعلنه على الفرنسيين. ويمكن القول أن تجاوب قبائل الطوارق مع دعوة « الشيخ آمود » يعود إلى عاملين اثنين:

ـ تمسكه بالدين الإسلامي الحنيف الذي نبذ التعاون مع الاستعمار وحرم الاتصال بغير المسلمين.

ـ إيمانه المطلق بتوحيد جهود القبائل الصحراوية، ونبذه للفرقة والتمزق الذي كانت تغذيه السياسة الاستعمارية قصد تفكيك الوحدة الوطنية.

معارك الشيخ آمود

خاض الشيخ آمود طوال حياته معارك عدة ضد الجيش الفرنسي. وكان الانتصار حليفه في أغلبها. ولم تكن هذه المعارك مقتصرة على بقعة جغرافية معينة، بل شملت كامل منطقة الجنوب الشرقي من الصحراء وامتدت رقعة هذه المعارك داخل الأراضي النيجرية والتشادية والليبية، مما أفقد القوات الفرنسية زمام المبادرة والسيطرة على الصحراء. وكانت النتيجة أن أنحصر تواجد هذه القوات في داخل المدن الكبرى مثل « ورقلة » و « عين صالح » . ولم تتجرأ القوات الفرنسية على التوغل في مناطق الطوارق الذين أحكموا حصارهم على تنقلات الجيش الفرنسي إلا بعد الاستعانة بخبرة السكان المحليين بشتى الوسائل الممكنة، من خلال إجبارهم مثلا على الانخراط ضمن وحدات الجيش الفرنسي كأدلاء وخيالة، ورغم هذا فإن الأمور لم تستقر لفرنسا إلا بعد العشرينات من هذا القرن. وكانت أولى المعارك التي شارك فيها « الشيخ آمود»، معركة «بئر الغرامة» عام 1881، التي قتل فيها المقدم فلاترس كما أشرنا سابقا. والذي لم نشير إليه؛ هو أنه خلال هذه المعركة برز « الشيخ آمود » للمقدم فلاترس وأصابه في كتفه الأيمن. ولكن مرشد القوات الفرنسية الترقي « أضيمان بن شيخة » استطاع أن يصيب بضربة قاتلة. والأمر الثاني؛ أن انهزام القوات الفرنسية في أول اصطدام عسكري لها مع قبائل الطوارق ترك أثارا كبيرة على

نفسية القادة العسكريين الفرنسيين الذين لم يفكروا في العودة إلى للتوغل في الصحراء إلا بعد عام 1889، إذ في هذه السنة أجتاز الكومندان « فور لامي»Foureau Lamy المنطقة، لكنه استفاد من تجربة حملة فلاترس المريرة، فأجتنب الاحتكاك مع السكان وأتجه بقوته إلى النيجر [16].

معركة جانت

لما بدأ النفوذ العثماني يشهد انكماشا وانحصارا على إقليم ليبيا الشقيقة استغل القادة الفرنسيون هذا الظرف العصيب الذي كانت تعاني منه السلطة العثمانية فراحوا يمدون ويوسعون من نفوذهم على الصحراء الشرقية. فدخلت قواتهم مدينة « عين صالح 1900» ومدينة « تمنغاست » في عام1904و« إيليزي » 1908، ووصلوا مدينة جانت مع مطلع عام 1909، وفي هذه الأخيرة، اصطدم الفرنسيون مع قوات الشيخ آمود لكن ميزان القوة كان هذه المرة لصالح الفرنسيين. وقد بقيت المدينة تحت النفوذ الفرنسي حتى عام 1911، وهذا بسبب انشغال الشيخ آمود بالحرب الدائرة بين السنوسيين والإيطاليين، إذ انسحبت قواته إلى داخل الأراضي الليبية لمد يد المساعدة والعون للمقاومة الليبية. وبعد الانتصار على الإيطاليين عاد الثوار إلى مدينة جانت يدعمهم في ذلك رجال الطريقة السنوسية، وشددوا الخناق على المدينة، ولم تستمر مقاومة الفرنسيين هذه المرة طويلا، إذ ما فتئت أن انهارت أمام إصرار الثوار وعزيمتهم، فبدئوا في الانسحاب، وراح الثوار يتتبعون الفلول الهاربة من الجند الفرنسي الذي كانت خسائره المادية والبشرية كبيرة. وبقيت مدينة « جانت » مستعصية على الفرنسيين حتى سنة 1916، عندما أدخلت وزارة الدفاع الفرنسي تغييرات وإصلاحات تمكنها من استعادة نفوذها وهيبتها على الصحراء وخاصة عندما عينت الجنرال « لابيرين » Laperrine قائدا عاما للجيش الفرنسي في الصحراء. ورغم استعادة الفرنسيين للمبادرة العسكرية في الصحراء الشرقية مؤقتا، باحتلال مدينة « جانت » سنة 1916، إلا أ، تصعيد العمليات العسكرية المسلحة من جانب الطوارق آزجر في منطقة والطاسيلي على الحاميات والمراكز الفرنسية، كان له أثر عميق على معنويات الجيش الفرنسي، الذي تيقن في استحالة إخضاع الطوارق وإسكات مقاومتهم خاصة وأن الطوارق ومن خلال تعاملهم مع الهجمة الاستعمارية، اكتسبوا خبرة ودراية في إيجاد الخطط التي تعرقل التوسع والتوغل الفرنسي. فقد أهتدي الشيخ آمود إلى أسلوب حربي تكتيكي مكنه من التغلب على عامل كبر الرقعة الجغرافية التي تدور عليها المعارك؛ وذلك من خلال تقسيم المهام العسكرية بين قادته وأعوانه. وكان هؤلاء القادة يمثلون مختلف القبائل الطوارقية. وكانت خطته الاستراتيجية تعتمد على أسلوب الكر والفر، واستخدام الكمائن باعتراض القوافل الفرنسية التموينية منها أو الفرق العسكرية ومباغتتها وتحاشي الدخول معها في مواجهات مباشرة، لأن ميزان القوة غير متكافئ بين الطرفين. وكانت نتيجة هذا الأسلوب في المقاومة، تكبد الجيش الفرنسي لخسائر بشرية ومادية معتبرة. فعين على منطقة عمر إدريس كل من القائدين « الشيخ العايب» من قبيلة « إيفوغاس » بمساعدة أخاه «حبة تول» ، ومن أهم المعارك التي شارك فيها هذان القائدان معركة « تازروفت » سنة 1917 و «تابنكورت » و « وادي أوال ». أما على منطقة « إيليزي » وضواحيها فقد عين القائد « إبراهيم أق بدة» بمعية « الشيخ التومي »، وكانت أول معركة لهما معركة « وادي إيميهور » زيادة على معركة « تين هضان » ، التي استشهد فيها عدد كبير من الثوار . وكإجراء انتقامي وتخويفي ألقت السلطات الفرنسية القبض على سبعة من أعيان مدينة « إيليزي » وأعدمتهم وأقبرتهم في قبر جماعي. ومن المعارك الشهيرة التي خاضها الثوار ضد الجيش الفرنسي نذكر معركة « عين

الحجاج » التي غنم فيها الثوار، غنائم معتبرة من العدة والعتاد وقتل فيها الضابط الفرنسي Le Marechal Des Logis [17]. مع ثمانية عشر من القناصة والعشرات من الأسرى من بينهم ضابط فصيلة، ولم ينج من المعركة سوى ثلاثة جنود تمكنوا من الفرار [18].

أما عن المنطقة الواقعة بين « جانت » وسلسلة جبال الهقار، فقد عين الشيخ آمود القائد « أبة غابلي » ومن أشهر معاركه معركة « وادي تهراق » وإيلامان « وتي هاو هاو » بين عين صالح تامنغست والتي قادها القائد « متيتة شبكي » جد الراوي، وانتهت باندحار القوة الفرنسية. ومن المعارك البارزة أيضا نذكر معركة « عين إيمجن» في 13 جويلية 1916 التي تكبدت فيها القوات الفرنسية خسائر كبيرة، وأرغم الثوار الضابط الفرنسي Le Quitot على الانسحاب من ساحة المعركة والالتجاء إلى برج فلاترس Fort Flatters، بعد أن ترك وراءه حوالي 13 قتيلا ومن النتائج المترتبة على هذه الهزيمة الفرنسية نفاذ مخزون المئونة المخصصة للجنرالMeynier القائد العام للجيش الصحراوي لشهري جويلية وأوت [19].

وأمام تصعيد العمليات العسكرية من جانب المقاومين الطوارق، بدأت السلطات الفرنسية في التفكير في التراجع والانسحاب من الصحراء الشرقية، إلا أنها تبدي مخاوفها من هذا الإجراء، لأنه يحول منطقة الهقار والطاسيلي إلى مرتعا لانتشار الأفكار المعادية للوجود الفرنسي، ومرتعا للفرق السنوسية يقصدها الثوار [20].

في هذه الأثناء الحرجة والعصيبة التي بدأ يمر بها الوجود الفرنسي في المنطقة، قرر الثوار الطوارق بقيادة «الشيخ آمود» استعادة مدينة « جانت » . ولا نقف كثير عند استعدادات الثوار التي سبقت عملية الهجوم، لأنه يطول شرحها، ومراحل هذا الهجوم ونتائجه، إنما نشير فقط أن الجديد في هذا الهجوم كان استخدام الثوار سلاح المدفعية وأسلحة حديثة أخرى، وبتعداد قدر ب 400مجاهد. وبعد حصار دام عدة أيام سقطت المدينة بيد الثوار وتشتت شمل الحامية الفرنسية التي سقط قائدها Le Marechal Des Logis La Pierre أسيرا وهو تائه في الصحراء. وقد ترك لنا هذه التفاصيل ومجريات هذه المعركة في تقرير جد قيم رفعه للقيادة العامة للجيش الفرنسي بعد إطلاق سراحه [21]. أمام هذا الانكسار للجيش الفرنسي بدأت الحكومة العامة بالجزائر في التفكير والبحث عن صيغ جديدة لتكسير الصمود الطوارقي. وكانت أولى الخطوات إعادة ترتيب الجيش الصحراوي وتجميعه بعد تشتته وتزويده بكميات أكبر من الأسلحة والعتاد وبفرق القناصة والصباحية الذين يتميزون بقدرات قتالية ممتازة وزيادة حجم التموين في ميدان الغذاء واللباس وربط المراكز والحاميات الفرنسية بالخطوط البرقية وتشجيع الأهالي على الانخراط في صفوف الجيش الفرنسي. وقد أثمرت هذه الإجراءات وخاصة وأن الثوار فقدوا حليفا قويا متمثلا في السنوسيين الذين كانوا يمدونهم بالأسلحة ويسمحون لهم باستخدام الأراضي الليبية كقواعد خلفية، بعد رجحان الكفة لصالح الإيطاليين الذين أبرموا مجموعة من الاتفاقيات والمعاهدات الأمنية مع فرنسا لخنق المقاومة الشعبية في كل من ليبيا والجزائر.

ورغم هذه الترتيبات الفعالة من جانب فرنسا، إلا أن السلطات الفرنسية كانت على دراية تامة بأن هذه الأخيرة كانت غير كافية لجعل الطوارق آزجر يضعون السلاح ويسلمون بالواقع الاستعماري لهذا دخلت فرنسا في مفاوضات مع « الشيخ آمود » لإبرام الصلح. ولإقناعه بحسن النوايا الفرنسية أرسلت له بعض الشخصيات ذات النفوذ المعنوي والروحي على طوارق الصحراء

الذين استقدمتهم من « ورقلة » و « عين صالح » و « المنيعة » والوادي «وتقرت » وكان طلب فرنسا الوحيد، إلقاء السلاح مقابل اعتراف فرنسي بتبعية منطقتي الهقار والطاسيلي لشيخ آمود، وتعيين هذا الأخير سلطانا على قبائل الطوارق، إلا أن الشيخ آمود رفض العرض الفرنسي رغم مغريا ته وأختار المقاومة عن الاستسلام والرضوخ لإرادة المستعمر. ولما ضاقت به السبل اختار المنفى على أن يعيش على أرض يدنسها المستعمر الكافر.

وفي خاتمة دراستنا هذه، يمكنا إيجاز فشل المقاومة الشعبية الطوارقية عامة وثورة الشيخ آمود خاصة بالعوامل التالية:

ـ استماتة فرنسا في التمسك بالصحراء، لما تمثله من مجال حيوي استراتيجي يربطها بمستعمراتها في إفريقيا الغربية والوسطى. وهذا ما جعلها تسخر كل إمكانياتها البشرية والمادية المتاحة للقضاء على أي تمرد أو رفض للوجود الفرنسي.

ـ سياسة فرق تسد التي انتهجتها فرنسا لإفشال الثورة وإخماد روح المقاومة عند قبائل الطوارق. هنا نشير آلي نجاح فرنسا في استمالة سلطان الهقار « موسى آق مستان » واستخدامه كأداة للدفاع عن فرنسا وحضارتها وقيمها وأحقيتها في الجزائر.

ـ تضييق الخناق على الثوار بواسطة الضغط على إيطاليا في منع الثوار من التزود بالأسلحة والمؤن وقد أبرمت في هذا السياق اتفاقيات بين الدولتين تبيح حق المتابعة داخل أراضيهما. ورغم هــذه الظروف والعوامل المثبطة للهمم والعزائم، إلا أن شرارة الثورة الشعبية استمرت مشتعلة ومتأججة، ولم تستتب الأمور لفرنسا إلا بعد العشرينات من هذا القرن بوفاة الشيخ آمود بمنطقة الغريفة بالأراضي الليبية سنة1928، وبوفاته طويت صفحة مشرقة من بطولات الشعب الجزائري الذي سيسارع مرة أخرى لتقديم التضحيات والقرابين فداء الوطن مع اندلاع الثورة التحريرية.

مصادر ومراجع الدراسة

1 ـ من الشواهد الدالة على وطنية قبائل الطوارق وإيمانهم بجدية مقاومة المحتل الأجنبي نقتطف اعتراف أحد جنرالات فرنسا وهو Meynier الذي يقول في ص 272:

- Dans les nombres compements "La touareg qui furent rencontres il n y avait plus que les femmes, la plus part des hommes avaient rejoint les rebelles…", *La guerre des Senoussya dans d'Afrique française 1915-1918*, in R. A. 1939, 227-275, 323-357.

(*) ـ استقينا أغلب المعلومات التاريخية التي تخص مجريات وأحداث ثورة الشيح آمود اعتمادا على الرواية الشفوية التي تفضل بها أحد الأشخاص الذين عايشوا الأحداث الأخيرة من ثورة الشيخ أمود، وقد سمحت درجة القرابة من قائد الثورة، أن يكون هذا الشخص ملما بمجريات الثورة وتطوراتها. ويعرف هذا الشخص في مدينة جانت بالشيخ الملاصي واسمه الحقيقي «عبد الله متيتة » لهذا فنحن مدينون له في توضيح عدة حقائق تاريخية لم نعثر عليها في المصادر والمراجع الفرنسية

2 ـ عن قضية « جانت » والصراع الدولي حولها أنظر؛ عبد الرحمان التشايجي: الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى . ترجمة على أعزازي، طرابلس .1982.. وكذلك

- Marchand, H. (1910). *Les pretentions Turques en Afrique,* in ques. dipl. et. col.

- Cartier, M. (1911). "Les Turcs en Afrique centrale, la frontierre Franco-Tripolitaine", *Afrique Française*, No: 21.

3 ـ عن المساهمة الجزائرية في حرب الأشقاء الليبيين ضد الغزو الإيطالي، علينا أن نشير إلى الدور البطولي الذي لعبه الأمير علي باشا ابن الأمير عبد القادر وابنه وانتقاله من سورية إلى ليبية لمحاربة الإيطاليين. حول هذا الموضوع راجع جورج ريمون Georges Remon وكتابه « من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا. ترجمة عبد الكريم الوافي. ليبيا 1983.

4 ـ يظهر ذلك في رسالة أرسلها « أهتيغال » إلى حاكم اغدامس يوضح له فيها ارتباطه الراسخ بالخليفة واستعداده التام للدفاع عن مصالح المسلمين. وردت هذه الرسالة ضمن مجموعة من الرسائل التي أوردها « بارنارد . م أنظر؛

- Bernard, M. (1882). *Deuxieme Mission Flaters, historique et raport, rediges au service central des affaires indigenes*, A. Jordan, Alger, 156-157.

5 ـ احمد إبراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث . دار المريخ ، الرياض ، 1981. ص 181.

Stucklé, Henri (1884). Le Commerce de la France avec le Soudan, Paris,- 6 Challa, 23-30.

7 ـ عن السياسة الفرنكو ـ طرقية، أنظر؛

- Desplaus, Servan (1893). *La Politique Franco-Touareg in nouvelle revue*, T LX XXIII.

Djebari, M. (1895). *Les Survivants de la Mission Flaters*. Imp. Brigol, Tunis, - 8 13.

Bernard, M. (1882). *Deuxieme Mission Flaters, historique et raport,* - 9 *rediges au service central des affaires indigenes*, A. Jordan, Alger.

Lhote, Henri (1944). *Les Touaregs du Hoggar*, Payot, Paris. - 10

11- Eydoux, Henri-Paul (1938). L'Exploration du Sahara, Gallimard, Paris.

12 من المصادر الفرنسية التي تعرضت لهذه الحادثة بالتفصيل، نذكر

- Bernard, Frédéric (1886). *Deux Missions Françaises chez les Touareg en 1880-1881 (1896)*, A. Jordan, Alger.

-"Les Deux Missions Transsahariens du. Lt. Flatters", *Bul. Soc. Geo.*, Alger 1909, 43-61.

13 -يحى بوعزيز: تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1991.ص 70.

14 - كانت نهاية هذا الراهب الجاسوس القتل على أيدي مجموعة من الطوارق الذين اقتحموا عليه قلعته في جبل اسكارم ، لما تيقنوا من الدور الحقيقي الذي كان يقوم به، واستولوا على مخزن الأسلحة الذي كان يخفيه. للتوسع أنظر؛

- Lessourd, Paul (1933). *La Vraie figure du père de Foucauld*, Flammarion, Paris.

- Bazin, René (1924). "Charles de Foucauld et les Musulmans", *R.D.M.*

- Robert, C., L'Ermite du Hogger, la vie au désert de Charles de Foucauld, Baconnier, Alger, 1938.

15 -حول هذه المعركة، أنظر؛

- Cauvet, G. (1945). *Le Raid du Tieutenant Cottenest*, Ouest. Dipl. Col. XIV, 102-107.

- Gautier, E.F., "Le Sahara Touareg", *Bul. Soc. Cpm.*, Paris, T. XXV, 442-443.

16 - عن ثورة الشيخ آمود، أنظر؛

- Bernard, A. (1921). "Le Sahara Français Pendant La Guerre", *Bul. C.A.F.,* Suppl.

- Fock, A. (1925). "La Situation au Sahara Centrale, Senoussya et Touareg", *B.C.A.F.*

- Ardaillon, L.T. (1911). "Notes Sur Les Touareg Ajjer", *B.S.G.,* Alger.

- Ardaillon, L.T. (1915). "L'oasis de Djanet", *Bul. C. A. F.*, Année.

La Mission Foureau-Lamy (1899). "A la suite de la Mission Lamy:-17 Les reconnaissances du Capitaine Pein", Bul. Com. A. F., 176-178.

18- Meynier, G., op.cit., 268.

19- Meynier, G., ibid, 269.

20- Meynier, G., ibid, 258.

21- Meynier, G., ibid, 259.

22- "Deux episodes de la guerre au Sahara. Les rapports du Marechal des Logis Lapierre", *Bul. C.A.F.*, Suppl. 1920, 62-91.

ويتضمن هذا التقرير مجموعة من الصور التاريخية الفريدة من نوعها لتحصينات العسكرية للمدينة ومرفقا أيضا بخريطة توضيحية لمدينة جانت وضواحيها.